



الدرس العشرون فتح مكة

عناصر الدرس:

- ١ - أسباب فتح مكة.
- ٢ - مسير النبي ﷺ للفتح.
- ٣ - دخول النبي ﷺ مكة.
- ٤ - الدروس المستفادة من الفتح.



الدَّرْسُ العَشْرُونَ

فتح مكة

أسباب فتح مكة:

يعد فتح مكة الانتصارَ الأكبر في التاريخ الإسلامي الذي أعز الله به دينه، ورسوله، وجنده، وحزبه، واستبشر به أهل السماء، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، خرج له الرسول ﷺ وجنود الرحمن سنة ثمانٍ في رمضان، وسمي بيوم الفتح والنصر المبين.

وقد ذكر ابن القيم أسباب الفتح في «زاد المعاد» ٣/ ٣٩٥-٣٩٦، ونلخصها في النقاط التالية:

- ١- نقض أحلاف قريش (بني بكر) معاهدة الصلح مع المسلمين، واعتداؤهم على أحلاف المسلمين (بني خُزاعة).
- ٢- معاونة قريش لحلفائها في قتال خزاعة بدافع الكره والبغض للرسول ﷺ والمسلمين.
- ٣- اختيار أهل قريش لاقتراح المواجهة والقتال مع المسلمين ونقض معاهدة الصلح، ولكنهم ندموا على هذا الاختيار.

مسير النبي ﷺ للفتح:

في اليوم العاشر من رمضان السنة الثامنة للهجرة النبوية خرج الرسول ﷺ من المدينة لفتح مكة بجيش قوامه عشرة آلاف جندي من أصحابه، وطلب من القبائل المسلمة حول المدينة (أسلم، ومزينة، وجهينة، وغفار، وسليم) الخروج معه، فلتحق به منهم ألفا رجل، فصار مجموع جيش المسلمين اثني عشر ألف جندي.

سار الرسول ﷺ - والمسلمون معه صائمون - فلما وصل إلى مكان اسمه «الجحفة» لقيه عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان قد خرج بأهله وعياله مهاجراً إلى المدينة، فاصطحبه في طريقه إلى مكة. فلما وصلوا وادي «مَرَّ الظهران» القريب من مكة، ركب العباس رضي الله عنه بغلة الرسول ﷺ البيضاء وانطلق يبحث عن أحد يخبره بمقدم جيش المسلمين لفتح مكة، ليبلغ قريشاً بذلك يحثهم على طلب الأمان من الرسول قبل أن يدخلها عليهم محارباً بقوة السلاح. في هذه اللحظات كان أبو سفيان خارج مكة يتجسس الأخبار، فلقيه العباس رضي الله عنه ونصحه بأن يأتي معه ليطلب له الأمان من الرسول ﷺ، فجاء معه، ولما دخلا عليه قال الرسول ﷺ مخاطباً أبا سفيان: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟... ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟». أعلن أبو سفيان رضي الله عنه إسلامه، فقال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. فقال الرسول ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

تابع جيش المسلمين متوجهاً إلى مكة، فمرت على أبي سفيان كتائب جيشهم الواحدة تلو الأخرى مما أثار الرعب في نفسه، فاقنع بأن خسارة قريش ستكون محققة إن هي حاولت منع المسلمين من دخول مكة.

أسرع أبو سفيان إلى قومه صارخاً بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس واحتموا بدورهم وبالمسجد الحرام.



دخول النبي ﷺ مكة:

ولما وصل الرسول ﷺ إلى ذي طوى وزع جيشه إلى ثلاثة أقسام: قسم أمر عليه خالد بن الوليد رضي الله عنه وأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقسم أمر عليه الزبير بن العوام رضي الله عنه -ومعه راية النبي ﷺ- وأمره أن يدخل مكة من أعلاها، وقسم أمر عليه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأمره أن يسلك بطن الوادي.

ووجه الرسول ﷺ أمراء الجيش الثلاثة بأن يكفؤا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ودخل الجيش الإسلامي مكة ولم يواجه جيشاً محارباً من أهلها باستثناء اشتباك محدود وقع بين جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه ومجموعة قليلة من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل.

دخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها، وسار والمسلمون بين يديه ومن خلفه وحوله حتى دخل المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت، وكانت في يده قوس يطعن بها الأصنام المنصوبة حول الكعبة وهو يردد قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْعِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩]، فتخز الأصنام ساقطة على وجوها.

تجمعت رجالات قريش منتظرين ما سيفعله بهم الرسول الأمين ﷺ، فتوجه إليهم وقال: «يا معشر قريش، ما تُروْنَ أني فاعل بكم؟» فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «إني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وأمر بلالاً أن يصعد فيؤذن للصلاة على ظهر الكعبة وقريش تسمع.

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها، فاغتسل، وصلى

ثمانِي ركعات في بيتها، وأجارت أم هانئَ حَمَوَيْنَ لَهَا، فقال لها رسول الله ﷺ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمَّ هَانِئَ».

فلما كان الغدُ من يوم الفتح، قام رسولُ الله ﷺ في الناس خطيباً، فَحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ومجَّده بما هوَ أهله، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا أَوْ يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ، فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ».

الدروس المستفادة من الفتح:

إن فتح مكة كان مليئاً بالدروس والعبر والفوائد، وهذه بعض لمحات وومضات من فقه الفتح وعبره وفوائده:

- ١ - بيان عاقبة نكث العهود، وأنه وخيمٌ للغاية، إذ قرئ نكثت عهدها، فحلَّت بها الهزيمة، وخسرت كيائها الذي كانت تُدافع عنه وتحميه.
- ٢ - التخطيط الدقيق القائم على الوعي، واليقظة دليل على كبر الهمة، وبعد النظر.
- ٣ - الإسلام دين السلام، وهو يسعى إليه، ويعمل من أجله.
- ٤ - حُكمة النبي ﷺ في قيادة الجيوش، وتحقيق الانتصارات الباهرة.
- ٥ - وجوب كسر الأصنام والصور والتماثيل، وإبعادها من المساجد بيوت الله تعالى.
- ٦ - البيان الصريح بأن مكة فتحت عنوة كما ذهب إليه جمهور أهل العلم، ولا يعرف في ذلك خلاف إلا عن الشافعي وأحمد في أحد قوليهِ.
- ٧ - جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجارت أم هانئ رضي الله عنها.